الافتتاحيّة

رمزيّة لبنان في العهد القديم

مقدّمة

رئيس التحرير

خلال سنيّ دراستي للاهوت في جامعة الروح القدس، وتخصّصي في روما في علم الكتاب المقدّس، ثمّ في لاهوته، وإبّان إقامتي ودراستي في القدس بنوع خاص، لفتت نظري دائماً مسألة رمزيّة لبنان في نصوص عديدة من الكتاب المقدّس. وكان اطلاعي الأوّلي والبدائي على بعض النصوص الفينيقيّة التي لها نصوص موازية في بعض كتب العهد القديم، وأنا طالب في كليّة اللاهوت، الدافع الأوّل إلى الاقتراح على أحد أساتذتي مشروعاً يقضي بكتابة «عهد قديم فينيقي-لبناني»، يتضمّن التحف الأدبيّة الكوسموغونية، والپانْتِيُون الفينيقي واختصاصاته وما يقال في كلّ من أفراده، ثمّ الروائع الشعريّة المزموريّة المتنوّعة كتنوّع المزامير البيبليّة، الخ. لم يكن الدافع روحاً قوميّة أو عصبيّة وطنيّة شبابية وحسب، بل أيضاً رغبة مصرّة على تبيان الروابط النصوصيّة بين البيبليا والأدب الفينيقي، من جهة، واكتشاف نقاط اللّقاء بين الوحي الالهي التوحيدي الهابط من فوق، والسموّ الروحي الفينيقي خاصة والشرق أوسطي عامةً الصاعد من الخبرة الروحيّة والانسانيّة والعقليّة المجبولة بعرق الجبين. أحببت حضارة أرضي، وحلمت بجلاء عظمتها يوماً، لتتربّع على عرش الشراكة بين حضارات الشعوب التي تشهد لعظمة الانسان المبدع والخلاّق.

عندما اقترحت موضوع رمزيّة لبنان في الكتاب المقدّس كبرنامج لأبحاث طلاّب الحلقة الأولى في كليّة اللاهوت الحبرية في جامعة الروح القدس، للعام الجامعي ١٩٩٧-١٩٩٨، كنت أنطلق في تنفيذ حلم لقي طرحُه على الإدارة التشجيع وعلى الطلاب الاستحسان. كنت أعرف مسبقاً مدى المخاطرة، إن من حيث ندرة الأبحاث المخصّصة حصراً للموضوع، وإن من حيث الوقت الذي قد يسلبه على حساب باقي الأبحاث المفروضة على الطلاّب. اتّكلنا على الذي «زار لبنان مرّة»، وألفى فيه إيماناً لم يجده حتى بين أفراد شعب اللّه، ووضعنا ثقتنا فيه وفي الإرادة الحسنة، وانطلقنا بفرح، واندفاع، وتصميم.

منهجيّة العمل

منذ البداية رسمنا خطة عمل علمي دقيقة تتضمّن المحاور التالية :

١ – البحث عن النصوص التي تتكلّم على لبنان صراحة أو تلميحاً، وفق تصميم يشمل ما يلي :

أ – الطبيعة :

- الجبال: جبل لبنان، جبل حرمون أو بعل حرمون، أو سنير، أو سيريون، الخ؛
- المطر، والثلج، والضباب، والغيوم، والندى، والمياه، والينابيع، والأنهار؛
- الشجر، والثمر، والنبات؛
- الحيوانات الدابة، والطائرة، والسابحة.

ب – المدن :

صور، صيدا، وصرفت صيدا، وجبيل/بيبلوس، وأفقا، وكامد اللّوز أو لُوز، وفينيقيا عموماً، وغيرها.

ج – الفنى المكَدَّس من المصادر التالية :

الزراعة، والصناعة وما يرتبط بها من تخصّص تقني وعلمي ومهارة، والتجارة، والإبحار...

د – الديانة :

من حيث تعدّد الآلهة، والممارسات الطقسيّة وما تتضمّنه من احتفالات، وتقادم، وذبائح، وعادات خاصّة، الخ.

٢ – دراسة رمزيّة العناصر التي تكون قد جُمعت، بالاستناد إلى التقاليد الكتابيّة المتوفّرة في المكتبات، وإلى المقارنة بين بعضها البعض، وبين نصوص أخرى من خارج البيبليا، بلوغاً إلى التحاليل الشخصيّة.

٣ – استخلاص المعنى البيبلي والروحي للنصوص المختارة.

في هذه الأثناء، ومنذ اليوم الأوّل، قمت بدراسة موضوع الرمزيّة بحدّ ذاته مع الطلاّب، وحاولنا التعمّق قدر الامكان في فهم الرمزيّة التي هي من الثوابت في كلّ الحضارات ولدى كلّ الشعوب.

الرمزية البيبلية

في الكتاب المقدّس، الرمز موجود من سفر التكوين حتى سفر الرؤيا. الرمز هو جواب على إحدى حاجات الفكر البشري الذي يستمتع بأن يعبّر بالصورة الخلاّقة، ويبرهن أنّه مُبدع، وقادر على أن يحلّ الألغاز المنتشرة في كل أرجاء البيبليا.

الكلام الرمزي تعبير عن حقيقة تتخطّى المحسوس والمادي. تكون هناك رمزيّة عندما نترجم الفكرة، بمظهر لا يكون نسخة مباشرة عنها، بل يوحي بها بطريقة بليغة.

يقول پول ريكور: «إذا كنّا لا نعرف كيفيّة عمل الرمزيّة في نصّ ما، ليس فقط لا نعرف لأي موضوع نبحث عن المصادر، بل لا نعرف أيّة مصادر تكمن وراء النص، كما لا نعرف إلى أيّ حدّ يختلف النص عن مصادره بعدما صار ما هو عليه»[1].

في الرمزيّة ينبغي إخضاع المعطيات الماديّة والتاريخيّة الأساسيّة لعملانيّة الرمزيّة، والمعطيات السمعيّة البصريّة للمرامي التي يسعى الكاتب إلى بلوغها، وبالتالي إخضاع الكلمات للنص.

بالنسبة إلى الكاتب البيبلي، الرمز هو المكوّن الأساسي للغته. يقول پول ريكور بأنّ «الرمز يدفع إلى التفكير»[2]؛ يُبيّن لنا هذا القول سخاء الموجودات وغناها بالمعاني، وبالتالي، من خلال اكتشاف ما هو خفيّ في المنظور، ندخل في سرّ اللّه خالق كلّ شيء واللاّمنظور.

تشبه الرمزيّة البيبلية الحبّة التي يبذرها الزارع في حقله، فلا تبقى مفردة بل تعطي ثلاثين وستين ومائة صورة رمزية شيقة.

من أجل دراسة الرموز في الكتاب المقدس، بشكل عام، من المفيد جمعها لتوضيح الواحد بالآخر، عن طريق التشابه أو التعارض أو التضاد:

- عن طريق التشابه مثلاً: الكرمة، والخمرة، والمعصرة، والكأس.
- عن طريق التعارض أو التضاد، مثلاً:
  - الماء يمكن أن يكون رمزاً للحياة والخصب، من جهة، وللتدمير والتخريب والتقتيل، من جهة ثانية، وهذا ما نتبيّنه منذ بداية سفر التكوين، حيث مياه السماء مختلفة عن المياه التي في الأعماق أو تحت الأرض، والمياه التي تروي غير تلك التي تدمر، الخ.
  - كذلك السيف المسلّط فوق الشعب الأمين أو الخائن، يكون للواحد رمز الحماية، وللآخر رمز تهديد أو إبادة.
  - والنار أيضاً ترمز إلى غضب اللّه، كما إلى الحب الملتهب، أو إلى الحسد القتّال...

ينبغي ألاّ يغيب عن البال أنّه من الصعب الكلام على اللّه سوى بلغة مثقلة بالرموز، وأن هذه الأخيرة تتنوّع مع الكُتّاب ووضعهم التاريخي والشخصي.

مَن شاء سَبر غور الرمز لا يستطيع أن يقف موقف المتفرّج، بل عليه أن يكون فاعلاً، ومتأمّلاً، وبالتالي مختلياً اختلاء الناسك المنفصل لأجل اللّه. لا حياة للرمز من دون قارئ له ومكتشف لأبعاده. من خصائص الرمز أن يكون أبداً إيحائيّاً، فيرى فيه كلّ واحد ما تسمح له قدراته أن يكتشف.

رمزية لبنان في البيبليا

لقد أصبح لبنان في نظر بني اسرائيل مرادفاً للجمال، والقوّة، والخصب، والديمومة، وشاهداً على عمل الخالق وعنايته، وبهاء خَلْقِه، والجبل الحَسَن، والنضارة التي لا تذوي (أش ٢:١٣؛ حز ٣١:٣)، الخ. لبنان هو اللّوحة الخضراء الرائعة الجمال التي تزهو في وسطها الأرزة الشامخة والخالدة والمتحدّية.

يرسم لنا الكتاب المقدّس صورة مميّزة عن لبنان، يبرزه فيها على أنّه الجبل الأبيض المغطّى بالثلج، كما بالغابات العابقة برائحة البخور، والمزيّنة بالأرز الطيب الشذا، والغني بالثلج والمطر والندى، وبالتالي بالينابيع والأنهار.

ويحفظ لنا الكتاب عينه معلومات هامّة ومثبتة عن المعتقدات والطقوس الدينيّة والفينيقيّة وتأثيرها على بني اسرائيل في هذا المجال. والسبب في هذا التأثير عائد إلى نجاحات الفينيقيّين، الصيدونيّين

١- Paul Ricœur, *Ermeneutica biblica. Linguaggio e simbolo nelle parabole di Gesù* (Morcelliana: Brescia 1978).

٢- المرجع نفسه.

والصوريّين والجُبيليين بنوع خاص، في حقول الزراعة والتجارة والصناعة، الأمر الذي اعتبره بعض من اليهود نتيجة لقدرات الآلهة الفينيقيّة الفائقة، فكان الوقوع في تجربة الإشراك في الإيمان.

كلّ هذه المعطيات وغيرها عبّر عنها الكاتب الملهم برموز وصور وتشابيه متنوّعة، لا بُدّ لاكتشافها من الغوص في عالم الآثار والتاريخ والآداب واللّغات وغيرها.

أمر آخر هام في رمزيّته ومدلولاته، هو البُعد الأسكاتولوجي الذي لبنان مصدر إلهامه بالنسبة إلى عدّة أنبياء؛ فلقد رأى هؤلاء في لبنان صورة عن الفردوس الموعود والمنتَظر، وعن الرجاء الذي كانت تغذّيه أجيال تلو أجيال ومنه تغتذي.

بالمقابل، وعلى نقيض ما تَقدَّم، مَن منّا لا يُفاجأ أو يُصْدَم لدى قراءة نصوص كالتالية :

- قض ٩:١٥: «فلتخرج نار من الشوك وتلتهم أرز لبنان»؛
- مز ٢٨:٥: «يحطم الربّ لبنان»؛ الخ.

وعلى العكس، مَن منّا لا يُسَرّ لدى قراءة الآيات الشعريّة الرفيعة التالية :

- «الصدّيق كأرز لبنان ينمي» (مز ٩٢:١٣)؛
- «عطرك كعطر لبنان» (نش ٤:١١)؛
- «منظره كمنظر لبنان» (نش ٥:١٥)؛
- «مجد لبنان أعطي له» (أش ٣٥:٢)؟

في التفسير البيبلي اليهودي، كما في الأدب التلمودي، هناك رمزيّة هامّة محورها لبنان الذي يمثّل غالباً، وعلى سبيل الاستعارة (métaphore)، هيكلَ أورشليم وشعب اللّه الذي يصلّي فيه، لأنّ الهيكل ينقّي اسرائيل من خطاياه، ويجعله أبيضاً كثلج لبنان:

«إذا كانت خطاياكم كالقرمز، فإنّي أبيّضها (כַּשֶּׁלֶג) كالثلج» (أش ١:١٨).

هناك شعور بالحاجة قويّ إلى إدراك الرموز التي لبنان مصدرها ومرجعها. مَن قرأ البيبليا شَعَرَ بالرموز المستعارة من لبنان وجماله تنبض في كيانه وتخلبه. من هنا ضرورة تفسير معنى مختلف الصور اللّبنانيّة التي يضجّ بها الكتاب المقدّس، انطلاقاً من دراسة كلّ منها في إطارها الطبيعي والجغرافي والتاريخي والشعري...

خاتمة

نختتم هذه الافتتاحية بأجمل الكلام عن لبنان والكتاب المقدّس للراحل الكبير الدكتور شارل مالك، هو التالي:

«يحتلّ الكتاب المقدّس مكاناً مميّزاً بين الكتب؛ لهذا ستدوم شهادته إلى الأبد، ومعه تبقى الصورة التي رسمها عن لبنان؛ هذا يعني أنّ مَن يقرأ هذا الكتاب، الآن وإلى دهر الدهور، سيتأمّل الصورة الخالدة التي رسمها عن لبنان»[٣].

المواضيع التي عالجها الطلاّب[٤]

فادي الأحمر رمزيّة طبيعة لبنان في الكتاب المقدّس: جبل لبنان وحرمون.

جورج اسكندر الأرز، رمز القوّة عند حزقيال وإرميا.

داني افرام رمزيّة الأرز في حزقيّال ٣١.

فؤاد الطبش رمزيّة الأرز في حزقيّال ١٧.

عزت الطحش لبنان في نشيد الأناشيد.

فريحة عقيقي وَ جان فرح رمزيّة انفتاح صور في الكتاب المقدّس، خاصّة في سفر حزقيّال ٢٦-٢٧.

جوزف عبّود جمال لبنان في نشيد الأناشيد.

الياس عدوان رمزيّة الأرز في في المزمور ٩٢.

صونيا غصين رمزيّة طبيعة لبنان في الكتاب المقدّس: مياه لبنان، خاصّة الثلج والندى.

مقرح مقرح عطر لبنان في العهد القديم.

قزحيا نعمان رمزيّة صور في حزقيال ٢٦:١٥-٢٢.

٣- الدكتور شارل مالك، **لبنان في ذاته** (مكتبة التراث اللبناني، بيروت ١٩٧٤) ٧٩.

٤- بسبب ضيق المجال، اضطرّت إدارة مجلّة «بيبليا» أن تختار بعض مواضيع الطلاّب المذكورة لتكون جنباً إلى جنب مع أبحاث أخرى أنتجها بعض أفراد أسرة التحرير.